البناء الفلسفي والديني لأخلاقيات المهنة

أ.د. حسن بشير حسن صالح
قسم الفلسفة– جامعة سبها

مقدمة:

لا شك أن للدين والفلسفة رؤيتها الخاصة للمهن التي يقوم بها الفرد في حياته، وأن لهذه المهن أخلاق لا بد من التمسك بها، وإظهارها عند امتهان أي مهنة في الوجود، فلا الفلسفة ولا الدين يبتعدان عن تحديد الأخلاق لأي مهنة كانت جسدية أم فكرية (عقلية)، وبإطلاعنا على ما أنتجه الفكر الإنساني من فلسفات مختلفة وما وضعته الأديان المختلفة من رؤى أساسية لأخلاق الإنسان خارج وداخل المهنة التي يقوم بها في حياته، أو أنه يرى أن الأخلاق من خلال القيم تتحكم فيه حين قيامه بالمهنة التي اختارها في حياته، لهذا أرى أن تكون هذه الورقة نافذة تطل على علاقة الدين والفلسفة بأخلاقيات المهنة.

ولتكون آراءنا إيجابية وذات نتيجة أرى أن الباحث في علم الأخلاق أو في نظرية القيمة الأخلاقية يركز على الأخلاق العملية والأخلاق النظرية على السواء، وما موضوع " أخلاقيات المهنة" إلاَّ دليلاً كاملاً وواضحاً على ارتباط الأخلاق النظرية بالأخلاق العملية، التي أرى من وجهة نظري هي تطبيق فعلي لمباحث الأخلاق بصفة عامة، كما أن دراسة موضوع البنية الفلسفية والدينية التي خصصت البحث فيها هي أيضاً تجسد فكرة هذا الارتباط.

في الحقيقة أن التفكير في أخلاقيات المهنة ليس باليسيرة، بل أرى فيه عمق من فكر في هذا الموضوع الذي لم أجد من تطرق له على مستوى التفكير الفلسفي القديم والحديث والمعاصر، ولم أعثر على دراسة دينية تبنت هذا الموضوع بشكل مباشر.

فموضوع أخلاقيات المهنة موضوع قائم بذاته ومن الممكن أن يدخل في أي تخصص، وأرى أن يضاف إلى العلوم المعيارية كالأخلاق، والجمال والمنطق، فبعد أن نضع له قواعده وأسسه ، هنا نقيس به أداء الإنسان لمهنته ومدى ارتباط هذه المهنة بعلم الأخلاق.

إذاً علينا هنا كباحثين في مجال الفلسفة أن نخرج من دائرة التفكير إلى دائرة العمل (الأداء)، أي حسب المنطق من التصور إلى الحكم، وبها نحكم على أن أفراد أي مجتمع من الناحية الأخلاقية، وما يسود المجتمع من قيم أخلاقية أدائية، فأخْلقت السلوك أمر يجعلنا نتوجه إلى الدين لكي يكون موضوع أخلاقيات المهنة له أيضاً بنية دينية إلى جانب بنيته الفلسفية، والأخلاقية.

علينا إذن في مرحلة وضع حجر الأساس لموضوع " البناء الفلسفي والديني لأخلاقيات المهنة" أن نتناول الأخلاق والقيم الأخلاقية في إطار الفلسفة والدين بشكل محدد فيما تعنيه الفلسفة ويعنيه الدين، والاتجاه الأخلاقي فيما بينهما إلى ذلك الموضوع الذي سأبدؤه بالفضيلة افتتاحاً للحديث عن الأخلاق .

أولاًــ الفضيلة المفهوم والنشأة: سئل سقراط (469 – 399)* عن الفضيلة، وكان هذا السؤال من الأسئلة الأولى التي بدأ بها فكره الأخلاقي. والسؤال هو ما الفضيلة؟ هذا السؤال ارتبط بالمعرفة ومن المؤكد أن "المعرفة" هي الطريق إلى العلم من جهة ، وإلى العمل من جهة أخرى.

أكدت الفلسفة أن مجال الفضيلة الأخلاق، وأن الفلسفة هي الحكمة ،فالحكيم بدوره يقوم بتفسير ما يحتاجه الإنسان في حياته، وأن الفضيلة مرتبطة بأفعال الإنسان، واختياره العمل الذي سيقوم به في حياته، وأن الطبيعة في كونها تشارك في تشكيل حياة الإنسان فهي أيضاً تحدد أفعاله الخيرة والشريرة، وبما أننا نبحث

عن الجانب الخير في الإنسان الذي يشكل الاتجاه نحو " الفضيلة" ونحو الخير، وهذا لا يتأتي للإنسان إلا من خلال الممارسة الحقيقية للأفعال الخيرة لأن "الممارسة شرط نمو الملكة واستقرارها في الفضيلة..."[1] وبهذه الملكة يستطيع الإنسان التحكم في أفعاله، فإذا كان الإنسان خيراً فستكون أفعاله خيرة، وإذا كان غير ذلك فلا يستطيع أن يسيطر على سلوكه بشكل عام في حياته ، وبشكل خاص في مهنته التي اختارها .

أما الإجابة التي اختارها سقراط لهذا السؤال فهي تنم عن طبيعته الخلقية،وأنه يميل إلى الخير، وأن عمل الفضيلة توجهاً إلى العمل الخير؛ لذلك جاءت الفضيلة عنده خير، والرذيلة جهل. "وهذا قول مشهور عن سقراط يدلّ على مبلغ إيمانه بالعقل وحبه للخير"[2]. رجل هذا تفكيره فلا بد أن يكون من أهم المؤسسين لعلم الأخلاق الذي نجد فيه أثر المهنة على تفكيره، واحتواء تفكيره على الفضائل التي تحدد لنا اليوم أهمية التمسك بأخلاقيات المهنة بصفة عامة، وكما ســبق وأن قلنا أن لكل مهنة أخلاق تنبع عن الجانب الخير للإنسان، فعالم الذرة قبل أن يفكر في دمار الحياة البشرية يفكر في الجانب الإيجابي للعلم الذي أوصله إلى معرفة قيمة الذرة في تأكيد حياة الإنسان ووجوده.

هذا الحديث ينقلنا إلى البحث في معرفة "القانون الخلقي" الذي به تتحدد سلوكيات الإنسان حيال احترام سلطة القانون في حياة الفرد، ولما كان الإنسان يسعى في حياته إلى الأفضل وإلى الأحسن . وإلى أن يعيش السعادة كان عليه أن يضع نصب عينيه "الفضيلة"، ولما كان عليه أن يحدد دوره في الحياة الاجتماعية توجه إلى تعلم العلم، وأنشد المعرفة ليستخدم عقله في اختيار مهنة يستطيع أن يخدم بها البشرية، فكان من الأولى أن يتمسك بأخلاقيات هذه المهنة التي تجعله إنساناً يحترم قوانين الطبيعة، وقوانين الحياة، وهذا لا يتم إلا بسيطرته على شهواته التي تحط من قيمته ، وتشوه حياته ويفقد سعادته التي كان ينشدها ويحرك قواه كلها من أجل أن تتحقق بشكل أخلاقي متميز.

هدفي في هذه الجزئية بيان أن كل فعل يقوم به الإنسان له جانبه الأخلاقي وهذا الأمر يقودنا إلى معرفة قيمة العمل الذي نقوم به في حياتنا ، ويعرفنا من حولنا من خلاله، ويصدر أحكامه الأخلاقية على أفعالنا من خلال احترام المهنة التي اخترناها للمشاركة بها في بناء المجتمع الذي نعيش فيه، ليس من العبث عندما حدّد سقراط الفضيلة، واتبعه تلميذه أفلاطون في هذا التحديد، بل كان من الحكمة أن يكون الإنسان فاضل في سلوكياته، متمسكاً بما يمليه القانون الخلقي على الفعل ليكون فعلاً خلقياً. من هنا نستطيع تحديد البناء الفلسفي والخلقي للمهنة لتصير مهنة أخلاقية، ولتظهر على السطح أخلاقيات المهنة جاعلة من سلوك الإنسان سلوكاً مقبولاً، وبالتالي يكون ممدوحاً بين الناس، محبوباً من قبل من يتعامل معه.

ثانياً ــ النشأة الفلسفية للأديان: رأينا في الفقرة الأولى كيف تقوم الفضيلة ببعث فعل الخير في الإنسان، وفي موافقة الأفعال الخيرة للطبيعة، وهذا فعل الفلسفة الذي يظهر في تفكير الإنسان حين يختار المهنة، وحين يقوم بأدائها. علينا الآن التركيز على ماهية الفلسفة مع معرفة النشأة الدينية للاتجاه الفلسفي عنده، وأثره على حياته.

لا شك أن الإنسان منذ وجوده على الأرض نشأت فيه روح حب العمل، واحترام القانون الذي ينظم إرادته، ويحكم العلاقة بينه وبين الآخرين، وهذا ما استوجب وجود الدين الذي يرى فيه الإنسان تنظيماً لحياته، وتحقيقاً لسعادته، والدليل على ذلك نشأة الأديان الوضعية، أولاً والأحكام العرفية التي أصدرها الإنسان في بداية وجوده من أجل التنظيم الأسري والاجتماعي الذي ظهرت فيه فلسفات الإنسان المختلفة، ابتداءً من نظرته – أي الإنسان– للحياة، وقد ظهر ذلك جلياً في قوانين حمو رابي ، وفي القوانين التي وضعت عند الهنود في حضاراتهم القديمة، وكما يظهر ذلك واضحاً في كتاب (القوانين) لأفلاطون، وهذا على سبيل المثال لا الحصر.

وعندما نقر ذلك أو نعرضه نعني به " إبراز دور الأخلاق في نظرة الإنسان للحياة والعالم مع إبراز دور فلسفتنا الخاصة التي كان من الواجب أن تتفلسف فتفكر في الطريق التي ظلت تسلكه حتى الآن سعيّاً وراء نظرة واقعية إلى العالم..."[3]. فالنظرة العقلية أو الفلسفية التي تحدد معنى الطبيعة، ومعنى الحياة، ومعنى الإنسان هي بمثابة انطلاقة إلى احترام القواعد الدينية، وهو ما أكسب الدين احترام الإنسان حتى أصبح بذلك؛ أي الدين عقيدته.

فالنشأة الفلسفية للدين تؤكد لنا القاعدة الأخلاقية عند الإنسان، وفي هذه الحالة ماذا تستطيع الفلسفة تقديمه إذا تغلبت غريزة الإنسان عليه عندما يريد أن يأخذ مكاناً في الحياة كشخص ينمو في أخلاقه بفضل التجربة التي يحصل عليها بالعمل؟.

هذا السؤال يؤكد لنا أهمية تطبيق المبادئ الأخلاقية في حياة الإنسان، مع استمرار الشعور الفياض للقواعد الدينية التي تنظم تفكير الإنسان ونظرته للوجود، مع تأكيد أن الدور الفلسفي في نشأة الدين لا يكون خالياً من النظرة الأخلاقية للواقع أو بمعنى أدق إلى العالم كحيز كبير يعيش فيه الإنسان، وإذا ما بحثنا ذلك فلم نجد سوى العلاقة الوطيدة بين الفلسفة والدين، ومما لا شك فيه أن ذلك ينطبق على الأديان الوضعية في نشأتها الأولى، ومن يريد التوسع في معرفة ذلك عليه أن يرجع إلى نشأة الأديان الوضعية في الحضارة الصينية والحضارة الهندية، والحضارات الشرقية القديمة الأخرى؛ لأن حيز البحث لا يستوعب ذلك.

ما يهم الباحث هنا وبالذات في هذه الجزئية من البحث هو ظهور النزعة الفلسفية في النشأة الأولى للأديان وبمعنى آخر هو تأثير الفلسفة في الدين، لكن ثمة من يسأل: قائلاً هل هذا الاتجاه ينطبق على الأديان السماوية ؟ سؤال يجعلنا نفكر فيما تبناه الدين السماوي مما احتواه الدين الوضعي الذي استمد قوته من العرف الاجتماعي.

نزلت الأديان السماوية من أجل تنظيم حياة الإنسان، وتوجيه تفكيره إلى الأصلح، وإلى وضع قواعد راسخة لا يستطيع الإنسان وضعها لمحدودية عقله وفكره.

جاءت الأديان السماوية بقواعد أخلاقية تليق بحياة الإنسان، وهذه القواعد مسئولة عن تحديد نظرة الإنسان للحياة وللوجود، "ولأن الأخلاق تنمو من نفس الجذر الذي ينمو منه توكيد العالم والحياة، لأن الأخلاق ليست هي الأخرى غير احترام للحياة..."[4]. إذن فالفلسفة بما أنها شاركت في نشأة الأديان، فمن الأولى أيضاً أن لها مشاركة في بناء النسق الأخلاقي، وكما أوضح للقارئ أن هذه المشاركة لا تعني أن للفلسفة سلطة على الدين، أو على الأخلاق، بل إن لمشاركة الفلسفة في ترسيخ قواعد الدين يعني ذلك إظهار البعد الفلسفي للدين، وبالمقابل إظهار البعد الديني للفلسفة، والقواعد الأخلاقية التي تؤدي بنا إلى دراسة أخلاق المهنة لا بد لها أن تخضع إلى الفلسفة، وإلى الدين على السواء، لأن الأخلاق الدينية والأخلاق الفلسفية لهما السلطة على الإنسان في حياته الفكرية والعملية من بداية بحثه عن القواعد الأخلاقية في كل من الدين والفلسفة.

إذاً فعلى كل باحث في علم الأخلاق الوقوف على حقيقة المبدأ الأخلاقي الذي يرجع فيها هذا العلم إلى الفلسفة ليعرف كيف تحققت الأخلاق الفلسفية،وكيف استطاعت الفلسفة أن تشارك الدين في نشأته مع الوقوف على امتثال الإنسان للقواعد الأخلاقية الفلسفية والقواعد الأخلاقية الدينية التي بها تشكلت حياته العملية، وتشكل بها فكره الأخلاقي الذي بعقله يفرّق بين الشر والخير، وبين الفعل الأخلاقي واللا أخلاقي، مع استمرار الوازع الديني في سلوكه مع الآخرين من خلال أخلاقيات المهنة التي اختارها لنفسه ؛ فالدين والفلسفة كلاهما يشاركان في النظرة الأخلاقية للحياة الطبيعية عند الإنسان.

هكذا شاركت الفلسفة في وضع قواعد للدين، وها هي الفلسفة اليوم تتجه من جديد إلى دراسة وتحليل قواعد العلم الأخلاقية، ويتسع بها المجال للتدخل فيما

يحتاجه الإنسان من العلم الذي يخضع في نظرياته المتجددة إلى الدين لتتضح بجلاء العلاقة الوطيدة بين الفلسفة والدين والعلم، ليظهر ذلك على سلوك الإنسان وتطور حياته وعلاقاته مع الطبيعة، ومع أخيه الإنسان، لتكون هذه العلاقات علاقات أخلاقية متزنة وهذا ما يعرف بالحداثة اليوم.

ثالثاًـ النشأة الدينية للاتجاهات الفلسفية: فيما سبق أوضحنا النشأة الفلسفية للأديان، ننتقل الآن إلى رؤية جديدة للنشأة الدينية للاتجاهات الفلسفية، منذ القدم، ومنذ ظهور الاتجاهات الفلسفية عند الإنسان كان الدين المتمثل في الكنيسة هو السيد الذي يأمر بظهور الأفكار الفلسفية أو إخفاءها، فالدين المتمثل في الأوامر والنواهي هو الذي طرح سلطاته على الفلاسفة والحكماء، والمثال الذي يرسخ ذلك ما حدث لسقراط عندما أراد أن يطرح أفكاره الفلسفية على الشباب في أثينا، وهو الذي رأت الكنيسة خطره على تغيير حياة وسلوك هؤلاء الشباب، فأمرت السلطات الكنسية بحبسه وإيقاف آراءه ، ثم الحكم عليه بالإعدام.

البحث هنا سيتجه إلى الدين الذي أنتج القواعد الأخلاقية التي عرفت فيما بعد بالقواعد الأخلاقية الدينية، والتي بها استطاع هذا الدين التمركز في حياة الإنسان المفكر الذي أراد من حياته قاعدة انطلاق للاتجاهات الفلسفية التي من الأمل عنده أن تغير حياته وحياة المجتمع الذي يعيش فيه.

نشأت الكثير من الفلسفات في ظل الديانات الوضعية عند الهنود الذين وضعوا القواعد الأخلاقية بحدودها الدينية والفلسفية، ونشأت هذه الفلسفات تحت سيطرة الكهنة الذين يرون من خلالها أنها أعمق عرض للاتجاه الديني عندهم، ولا شك أنّ لهذه الفلسفات جوانب دينية عميقة، ولدت لديهم القواعد الأخلاقية التي لم يجد الإنسان عندهم مفرٌ من الخروج عنها، فجوهر هذه الفلسفات ديني ولا مناص من ذلك، ولا يقف ذلك على الفلسفات القديمة فحسب. بل حتى على الفلسفة الحديثة يظهر ذلك الاتجاه الديني و"اسبينوزا وكانط اللذان يعدّان من بين الأخلاقيين

الفلاسفة ينتسبان ، إذا حكمنا عليهما بحسب الاتجاه العام في فكرهما إلى مملكة الأخلاق الدينية..."[5].

هكذا نرى التوجيه والسيطرة الدينية على الاتجاهات الفلسفية القديمة والحديثة، وما يهمنا في ذلك بشكل أدقّ وأعمق الاتجاهات الأخلاقية، وقواعد الأخلاق التي أنشأتها الفلسفات المختلفة التي ظهرت بفضل الفلاسفة والمفكرين قديماً وحديثاً، وهذا ما تأكد عند "كونفوشيوس وبوذا وزرادشت... ثم أموس واشعيا، وسقراط وأفلاطون، وأرسطو طاليس، وأبيقور والرواقيون، ويسوع وبولس، والمفكرون في عصر النهضة، وعصر التنوير، وعصـــر النزعة العقلية"[6]...الخ .

عند هؤلاء جميعهم اتجاه أخلاقي يظهر من ناحية الفلسفة التي يتخذها منهجاً له راجعاً في ذلك إلى معتقده الديني الذي أثر في فلسفته، واتجاهه الأخلاقي الذي دائماً يؤكد فيه النظرة الأخلاقية التي تتمثل في الخير انطلاقاً من أن الدين هو الذي يضع أسس الأخلاق النظرية، والأخلاق العملية التي يسير عليها المجتمع ويؤسس قواعده على ذلك، حتى ظهر فيما بعد ما يعرف بالأخلاق الفلسفية، والأخلاق الدينية التي يجب علينا ألا نبحث عن فاصل يفصلهما عن بعض؛ لأن " الأخلاق الدينية تهيب بسلطة عالية على الطبيعة، فهذه هي بالأحرى الصورة التي تتبدي عليها، والواقع أنها مهما ارتفعت فإنها ستسعى لإيجاد مبدأ أساسي للأخلاق مستقل. وفي كل عبقرية دينية يحيـــا مفكر أخلاقي، وكل أخلاقي يتفلسف بعمق حقـــاً هو صاحب دين"[7].

بما أن الأمر هكذا فلا نجد غرابة في أن الفعل الأخلاقي الذي يصدر عن الإنسان له جانبان فلسفي (عقلي)، والجانب الآخر ديني، ومن هنا سهل لنا الأمر في تحديد مصدر أخلاق المهنة في جميع فروع العلم التطبيقية والطبية والإنسانية، منذ النشأة الأولى للأديان وللفلسفات المختلفة. وإذا ما أردنا أن نلقي الضوء في هذا الموضوع تحت طائلة الدين المسيحي نرجع إلى طوباوية المسيح التي يتجلى فيها المبدأ الأساسي للأخلاق، وما الفلسفات العقلية إلاّ دليلاً واضحاً على اهتداء الفكر

الإنساني إلى ما يضعه الدين من قواعد وأسس تنير الطريق للإنسان الذي يريد أن يوفق بين الدين والفلسفة، ويبني القواعد الأخلاقية على هذين الأساسين.

السؤال الذي أرى طرحه قبل أن ننتقل إلى الموضوع الثاني هو: هل يسعى كل من الفيلسوف أو الحكيم ورجل الدين إلى معرفة قواعد أخلاق المهنة من خلال الفلسفة أم الدين؟ هذا السؤال يؤكد لنا الاتجاه إلى معرفة مواقف هؤلاء جميعاً من الأخلاق العملية التي توضح لنا مخارج أخلاقيات المهنة؛ لأن الفيلسوف له مهنة، ورجل الدين له مهنة، وهذه المهن جميعها ستظهر واضحة جلية منعكسة على حياة الناس؛ لأنه لا يمكن فصل الاتجاهين عن بعضهما لا في الفلسفات القديمة ولا الحديثة ؛لأن الأخلاق نشأت من فكر رجل الدين لتصبح أخلاقاً دينية، وعاشت في ذهن الفيلسوف وظهرت على أفعاله لتصبح فلسفية ، والفاصل بينهما صعب.

ولا يفوتنا ونحن نبحث .في الأصل الديني للفلسفات أن نلقي نظرة بسيطة على نشأة الفلسفة الإسلامية في إطار الدين الإسلامي، بُعِث النبي -ﷺ- ليتمم مكارم الأخلاق، ليؤكد لنا هذا أثر الدين الإسلامي على الاتجاهات الفلسفية وأن أخلاق الدين الإسلامي ومبادئه الخيرة ظهرت على مفكري وعلماء وفلاسفة الإسلام، وهم الفارابي، وابن سينا، والإمام الغزالي، وابن رشد، هؤلاء جميعاً لهم آراء عميقة في الأخلاق التي ظهرت بعد إطلاعهم الوافر على الفلسفات اليونانية ، فما ظهرت الفلسفة الإسلامية إلا من خلال الفلاسفة المسلمين عقيدة،فهم متمسكون بتعاليم الدين الإسلامي التي وُضعت من خلالها الأخلاق الإسلامية والدليل على ذلك المذهب الأخلاقي الذي وضع أسسه ابن مسكويه، الفيلسوف الإسلامي الأخلاقي . ولا ننسى أن نذكر عهد الصحابة الذي اتسم بالنظر العقلي، والاتجاه الأخلاقي في بنية أفكارهم التي مرجعها إلى القرآن الكريم كلام الله-عز وجل- :" فالقرآن قد ذكر الحكمة التي كانت معروفة عند العرب، وكانت شرفاً لأهلها وجاهاً، وأثنى عليها وشجع على حياتها ونموها،فالقرآن فيه الحكمة التي يجب على كل مسلم أن يتعلمها، لأن القرآن إنما استعمل الحكمة والحكم، وما إليهما في معانيها اللغوية أو

في معان ذات نسب واتصال بها شديد"[8]. هذا كله يؤكد لنا النشأة الدينية للأفكار الفلسفية التي طرحت قواعد الأخلاق ، واختلاط الأخلاق الفلسفية بالأخلاق الدينية.

ولا يخلو فكر أحد من الفلاسفة من النظرة الدينية، بهذا اتضح لنا الموضوع بشكله العلمي والعملي الذي على أساسه نقر بأن كل ما يأتي به الفلاسفة من نظريات واتجاهات له بعده الديني، ومن ثم له بعده الأخلاقي الذي تتبع فيه أخلاقيات المهنة، ونظرة الفلاسفة والمفكرين لها. والقرآن الكريم هو الدليل القاطع على الاهتمام بأخلاقيات المهنة، فهو مثلاً حيّاً لدور الدين في بناء الفلسفية فيقول المولى – عز وجل– في هذا الصدد مؤكداً ذلك: **﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾**[9]. فالقرآن الكريم يقوم بتبيان ما يحتاجه الناس في حياتهم، وهذا يدل على ضرورة ربط العمل بمبادئ الإسلام التي جاءت بما فيه صلاح الخلق في معاشهم.

رابعاًـ النظرة الأخلاقية والاجتماعية لأخلاقيات المهنة: لنلقي الضوء في هذه الجزئية على نظرة الأخلاقيين وعلماء الاجتماع،لأخلاقيات المهنة. عندما وضع علماء الأخلاق القواعد الأساسية للأخلاق أخذوا في حسابهم المهن التي يقوم بها الإنسان، وذلك منذ بدايات التفكير الأخلاقي في الفلسفة القديمة، فانحصرت هذه الرؤية عندهم في الفعل الأخلاقي المسبوق بالمعرفة، لنبدأ الحديث في هذا المجال من المفهوم التقليدي للأخلاق الذي يقول: "هي مجموعة من القضايا الوضعية والمعيارية التي تصف الفعل الخيّر وتحدد طبيعيته طبقاً لمعايير وأحكام موضوعية"[10].

هذا التعريف يتوافق مع تعريف أخلاقيات المهنة التي "هي المبادئ السلوكية المطلوبة من المشتغلين بالمهنة"، إذاً فعلماء الأخلاق الذين يعتمدون هذا التعريف نجدهم ينظرون لأخلاق المهنة من المنظور العملي للأخلاق، وأول هؤلاء الأخلاقيين سقراط الذي طرح في حكمته المبادئ الأساسية للأخلاق، وربط الحكمة بالأخلاق عند الإنسان، وباعتباره أول من وضع قواعد علم الأخلاق التي أكد فيها

دور أفعال الإنسان في نشأة الأحكام الخلقية كما أنه أوجد مقياساً ثابتاً للأفعال الخيرية، والأفعال الشريرة .

إذاً يعدّ سقراط أول الأخلاقيين الذين نظروا لأخلاقيات المهن، ووضع قواعد للحكم على الأفعال عند الإنسان وهي التي يجب أن تصدر عن الإنسان المتخصص فإن كان طبيباً عليه أن يحترم أخلاقيات الطب، ويراعى فيها حق الإنسان، ويحكم الضمير في مهنته، وينسحب ذلك كله على جميع المهن مثل التعليم، والاقتصاد، والاجتماع...الخ، وحتى يكون الإنسان سعيداً في حياته من المهم أن يؤدي مهنته على أحسن وجه، ويراعى فيها الخير، فانطلاقاً من سقراط فيلسوف الأخلاق أخذ من جاء بعده هذه القواعد واستطاعوا أن يؤسسوا لعلم الأخلاق قواعد مؤداها سعادة الإنسان، والمجتمع، لأن العلم الطبيعي عنده يؤسس على البعد عن الرغبات والميول حتى لا تتحكم هذه الرغبات في سلوكياته وينسى ما يملى عليه ضميره من أداء عمله لأجل الخير.

هنا بدت آراء سقراط واتجاهاته الأخلاقية تسيطر على المفكرين من بعده وهي التي أدت بهم الوصول إلى تحديد القيم التي تضفي على حياة الإنسان حُلل الخير والسعادة لأن سقراط دائماً يطالب بالسعادة التي تقوم عنده في سيطرة العقل على دوافع الشهوة ونوازع الهوى، وردّ الإنسان إلى حياة الاعتدال، ومتى عرف الإنسان ماهيته وأدرك خيره أتاه لا محالة لأن الفضيلة وليدة المعرفة، فمتى عرفت الخير حرصت على فعله، ومتى أدركت الشر توخيت أن تتجنبه... وهكذا بدت العلاقة وثيقة بين الفضيلة والمعرفة، وهي علاقة ميزت سقراط وأفلاطون، وكادت تشيع في الفكر اليوناني كله...[11].

إن هذه الفكرة الأخلاقية التي سادت الفكر اليوناني والتي كان منشأها سقراط استطاعت أن تسيطر على جل المذاهب الأخلاقية في أوروبا قديمها وحديثها، وهي التي أدت إلى خلق سلوك أخلاقي مؤسس على الفضيلة التي نشأت على المعرفة واستخدام العقل في ذلك، إذن ستحدد نظرية الأخلاقيين للمهنة من المنطلق

السقراطي الذي ساهم أفلاطون أيضاً في تأييده لقيام المبادئ العامة والقيم المطلقة، وموضوعية الأحكام الخلقية، ووحدة المقياس الثابت الذي يميز عن طريقه بين خيرية الأفعال وشريتها، ورد الأخلاقية إلى العقل دون الوجدان...[12].

هكذا بدت لنا أسس الأخلاق، وهي التي استطاع بها علماء الأخلاق تحديد نظرتهم الأخلاقية إلى المهن مؤكدة على جانبها الأخلاقي الظاهر على سلوكيات الإنسان التي ما تفتأ أن ينشد بها الإنسان الخير، وإلى إرضاء الله والضمير،فهما الحكمان على تأدية عمله الذي يؤدي به هو نفسه إلى السعادة، وإلى خدمة المجتمع.

أما الأخلاق في الفكر الحديث التي أكدت على الفعل الأخلاقي والسعادة والمنفعة فنجد رائد علم الأخلاق الحديث هو الآخر يؤيد الفكرة التي وضعها سقراط، إذ يرمي (بنتام) إلى توجيه النشاط الإنساني إلى إسعاد الفرد والمجتمع الذي يتألف عنده من أفراد، طارحاً موضوع اللذات بعيداً حتى لا تتحكم في الإنسان الذي يضع نصب عينيه المنفعة وهي التي تحدد سلوكه وتشكل نظرته إلى الحياة الأخلاقية التي يجب أن تكون عملية لا نظرية، فمن هنا ساهمت الاتجاهات الأخلاقية المختلفة على مر العصور في تشكيل الأسس الأخلاقية لمهن الإنسان متوازية مع نظرة الفلاسفة إلى أفعال الإنسان وما يرمي به في حياته من أجل أن يكون سعيداً، ومن أجل مشاركته الفعالة في بناء المجتمع الذي يعيش فيه، وينعكس ذلك كله على مدى تمسك الفرد بالفضائل والأخلاق الحميدة، ينشد الخير ويسعى إلى بناء مجتمع الفضيلة.

لقد استفدنا من هذه الآراء وهي التي تساعدنا على معرفة أخلاقيات المهنة بشكل دقيق من خلال القواعد الأخلاقية التي ينشدها مفكرو وفلاسفة اليونان قديماً وأوربا حديثاً، كما نسعى في هذا البحث إلى إظهار فكرة الفضيلة المبدئية على المناحي الأخلاقية التي تزخرف حياة الإنسان وفكره وطبيعته البشرية التي توفر له السعادة ذات المنشأ الفعلي لا العاطفي، وعلى الإنسان أن يسعى دائماً لتحقيق الخير ونبذ الشر، وإذا كانت " المنفعة عند (بنتام) هي التي تحقق ذلك فعلى الإنسان تعقل

ذلك لأن الفعل الأخلاقي الذي يقوم بتحديد أخلاقيات المهنة لا بد من تأكيد مبدأ (المعرفة العقلية لا الحسية) وهكذا اتضحت لنا نظرة الأخلاقيين إلى المهنة وأخلاقياتها وهي نظرة فلسفية خالصة مؤداها بناء مجتمع أخلاقي تسوده روح المودة والسعادة.

ولعلماء الاجتماع نظرتهم لأخلاقيات المهنة وهي التي تشارك في بناء مجتمعاً أخلاقياً هدفه سعادة الإنسان وتربيته تربية اجتماعية قائمة على الفضيلة وتنشئته تنشئة أخلاقية، وعندما كانت الفلسفة الحديثة من خلال (كانط) بنت الاتجاه الأخلاقي على المثالية والروحية، نجد "إميل دوركايم" أكبر أتباع المدرسة الاجتماعية الفرنسية من الوضعين قد رأى أن القاعدة الخلقية تضم عنصر الالتزام وعنصر الترغيب معاً، ثم هي كذلك قاعدة مغرية تحبب إلينا العمل بما يحقق سعادتنا"[13].

إن النظرية الاجتماعية للأخلاق بصفة عامة ولأخلاقيات المهنة بصفة خاصة تحدد أهمية الأخلاق اجتماعياً، وتؤسس للفرد في حياته الطريق الذي يؤدي به إلى إنشاء الفضيلة والتمسك بها، وأنه لا يمكن لأي مهنة أن تكون بدون أخلاق، ليشعر الفرد بالسعادة حين يؤدي المهمة المناطة به أو العمل الذي اختاره في حياته، وهذا ما نعني به الأخلاقيات التطبيقية، وأخلاقيات البيئة،خاصة وأنه أي الفرد يتمسك بعقيدته الدينية ثم بما يملي عليه المجتمع من عادات وتقاليد يعيشها، ليعرف واجباته، وحقوقه، حتى وإن طالب بها يطالب بها بشكل أخلاقي وعقلاني. ولأن الفرد هو عضو في جماعة إنسانية نجده يحترم هذه الجماعة، ويتعامل معها بالشكل الأخلاقي الذي يضمن له احترام الآخرين. ولضيق المجال لا نستطيع استعراض ما قدمه علماء الاجتماع في هذا الموضوع، المهم أننا عرفنا أن جلّهم كان لهم نظرة خاصة لأخلاقيات المهنة، وأن المجتمع الذي يعيش فيه الفرد له قواعد لا يستطيع الفرد الخروج عنها، لأن تمسكه بالقواعد الأخلاقية هو الذي تبنى له العلاقات الاجتماعية مع أفراد المجتمع، والخروج عنها يعد فعلاً لا أخلاقياً قد يعاقب عليه

القانون لأن قانون الحياة الاجتماعية قانوناً أخلاقياً، وأن الفرد وهو يعيش في جماعة من خلالها تتشكل سلوكياته التي يتعامل بها معهم.

"بهذا تصبح غاية السلوك الأخلاقي توكيد الذات المندمجة في مجموعها، فيعلو احترام الإنسان لواجبه موظفاً في حكومة أو عاملاً في مصنع أو طالباً في معهد أو عضواً في أسرة"[14]. أليس هذا ما يؤكد احترام أخلاقيات المهنة وذلك من خلال الحياة الاجتماعية التي يعيشها الفرد، وهي مصطبغة بالصبغة الأخلاقية أحكمت سلوك الفرد أخلاقياً ؟ نعم إن كل ما يقوم به الفرد في حياته من عمل فهو من أجل مجتمعه لا من أجل تأكيد ذاته فقط نابذاً مصلحته الذاتية مقدماً على ذلك مصلحة المجتمع الذي يعيش فيه، هذا ما أكده القرآن الكريم في قوله تعالى:﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾[15]، هكذا تتأكد نظرة الاجتماعيين إلى أخلاقيات المهنة، وتظهر القيمة النظرية والعملية، والاجتماعية للفعل الأخلاقي والسلوك لتحل كل المشكلات التي تعترض تقدم المجتمع.

خامساً ـ النظرة الفلسفية لأخلاق المهنة (الأخلاق التطبيقية): إن الفرد في المجتمع يتمسك بأخلاقيات مجتمعه الذي يعيش فيه. في هذه الجزئية أتحدث عن أخلاقيات المهنة التطبيقية التي من خلالها يظهر الفرد متمسكاً بأخلاقيات وعقائد وقيم ومبادئ المجتمع، وأخلاقيات المهنة هي المبادئ التي يتمسك بها الفرد وتنحصر هذه المبادئ في الإخلاص، والصدق في تأدية المهنة، فالفرد وهو عضو في جماعة أو صاحب مهنة كالتعليم مثلاً أو طبيباً أو مهندساً، هذه المهن جميعها لها أخلاقيات، فالمعلم عليه أن يحكم ضميره في أداء عمله، وأن يراعي الله، والضمير لكي يكون فرداً مخلصاً صادقاً مؤدياً عمله على أحسن وجه، ويكون إنساناً ذا مكانة مرموقة في مجتمعه.

وحتى يكتسب الصفات الحميدة التي بفضلها يبنى المجتمع بالشكل المطلوب، ولقد أدركت المجتمعات والدول المتقدمة أهمية الأخلاق بصفة عامة وأخلاقيات

المهنة بصفة خاصة، أدى بها هذا الإدراك إلى تقييم الأفراد المهنيين من خلال أخلاقهم وتفانيهم في العمل، واتجاههم نحو بنية أخلاقية تستمد عناصرها من الدين، ومن القيم التي يتمسك بها أفراد المجتمع ، "ومن الوثائق الأخلاقية الصادرة من الأجسام المهنية التي تحدد الالتزامات الأخلاقية للممارسات المهنية مثل الصدق والنزاهة والأمانة، والحزم، والانضباط، واحترام قيم المجتمع .

إن أخلاقيات المهنة تشكل كماً هائلاً من الالتزامات الخلقية على الفرد إذ نجدها تشمل كل ما يتعلق بحياته المهنية، والاجتماعية، والسياسية، فهي واسعة المجال في عصرنا الحالي فللطب أخلاقيات، وللهندسة، والاتصالات والإعلام والصحافة والتربية والتعليم، والإدارة، كل هذه المجالات لها أخلاقياتها الخاصة .

إن ما يحكم أخلاقيات المهنة في المجتمعات المعاصرة هو تعقد الحياة وتوسع الاختصاصات في العلوم التكنولوجية، والعلوم الإنسانية، فحياة الإنسان محاصرة من كل جوانبها حتى نجده يبحث عن المبادئ الأخلاقية ذات القواعد الأخلاقية النابعة من قيم المجتمع الدينية، والاجتماعية، وهناك من يقول :"إن ظاهرة تزايد الطابع الاحترافي في دائرة الأشغال والمهن تستدعي أن تضع كل مهنة معايير وقواعد تنظيمية وداخلية لضبط وتنظيم الممارسة الداخلية وتتخذ عدة أشكال أهمها قواعد الممارسة الجيدة..."[16]، ومن هنا تظهر أهمية أخلاقيات المهنة، والبحث عن أسس الأخلاق التي بها الفرد يقف ملتزماً بالحقوق والمسئوليات المرتبطة بممارسة المهنة، وهذا ما ظهر واضحاً وجليّاً في المجتمعات المعاصرة وأصبحت سمة من سماته، وانصبت الاهتمامات البحثية في مجال الفلسفة، والعلوم التكنولوجية على دراسة الأثر الأخلاقي على أداء الأفراد لمهنهم المختلفة، وتوسعت دائرة البحث بإمكانيات تقنية حديثة، وتوجه علماء الأخلاق، والفلاسفة الأخلاقيين إلى دراسة أخلاقيات المهنة وأثرها على تنمية المجتمعات،"وساهموا في أغناء الحوار الذي يدور في ميادين علوم الحياة بين تيارات ونزعات مختلفة... مثل الحوار الذي يدور بين النزعة العقلانية الإنسانية الجديدة أو" الكانطية الجديدة"، وبين النزعة

العلموّية، إن هذا الحوار جاء من أجل استمرار البشرية، وحياة الإنسان والمحافظة على النوع البشري، كل هذا يتحدد من خلال الدراسة العلمية للأخلاق التي تتجه إلى تحديد أخلاقيات المهنة.

الكثير من الفلاسفة طرحوا تساؤلات عدة حول أخلاقيات المهنة، هذه التساؤلات تهدف إلى اكتشاف صعوبات المهنة، ومدى قدرة المهنيين على حلّ المشاكل التي تعترض طريقهم مثل المخاطر التي تسببها الآليات التقنية، ومسألة المسئولية الاجتماعية للمهنيين. فنحن مع من يميز أخلاقيات المهنة بإثارة النقاش والحوار بين ممثلي تخصصات متعددة ومختلفة : فالأخلاق والقانون وحقوق الإنسان كلها تثير تساؤلات وتحدث مناقشات من أجل تعميق الفكر الفلسفي في تحديد الدور المهمّ لأخلاقيات المهنة ليكون العنصر الأساسي فيها المسئولية الأخلاقية لأصحاب المهنة، وزيادة المعرفة في هذا الميدان الأخلاقي العملي، أو التطبيقي الذي يبرز العلاقة بين الأخلاقيات التطبيقية، وأخلاقيات المهنة.

سادساًــ الأثر العملي لأخلاقيات المهنة في تقدم المجتمع: سأتناول في هذه الجزئية من البحث الأثر الإيجابي الذي طرأ على المجتمع المعاصر جراء تمسكه بأخلاقيات المهنة، ووضع قواعد خاصة بها.

من الآثار الواضحة على حياة الفرد في المجتمع هو ظهور الدراسات المختلفة لأخلاقيات المهنة في جميع المجالات المهنية وأصبح لكل مهنة أخلاقيات يجد الفرد نفسه ممتثلاً لها لأنها تعد قواعد أخلاقية تنظم الممارسة العلمية لأصحاب المهن، وتنظم العلاقات الاجتماعية بين أصحاب المهن.

– ظهر ما يعرف الآن بأخلاقيات المهن الطبية التي استطاعت أن تضفي على المجتمع القيم والأخلاق التي طرحت العديد من القضايا والمشكلات الطبية التي كانت تعاني منها المجتمعات من تدني في الأداء، والانحلال الخلقي، والعبث بالسلالة البشرية من خلال علم الأجنة والإنجاب الاصطناعي، ولكن بعدما ظهر المنادون بأخلاقيات المهنة انحسر اللا أخلاقيون من أصحاب المهن الطبية،وسادت

في مجال الطب قواعد أخلاقية جديدة على رأسها إنشاد الفضيلة،والابتعاد عن الرذيلة.

– كما ظهر ما يعرف بأخلاقيات البيئة التي سنت قوانين المحافظة على البيئة السليمة، والمحافظة على المقدرات البيئية التي يحتاجها الإنسان في حياته فابتعدت مخاطر التلوث البيئي وانتشرت ثقافة المحافظة على بيئة نظيفة من أجل الصحة العامة للمجتمع.

ومن المجالات المهمة في حياة المجتمعات المعاصرة، التعليم، والقيم الحضارية التي أوجبت على المدرس التمسك بها، لينشد المعلم الفضيلة وتحكم الضمير الأخلاقي في مهنة التدريس، حيث ينبذ أخطار الغش، ويقوم بتعليم جيد بأخلاق جيدة، وينشأ جيلاً مخلصاً لدينه ووطنه.

ومن مهام الفكر الأخلاقي الجديد المتمسك بأخلاقيات المهنة، توسيع مجال مفهوم حقوق الإنسان، وإعادة صياغة معاني مفاهيم الحرية والواجب والمسئولية في ميادين البحث العلمي، التي أدت إلى تساؤلات جديدة حول معنى الحياة ومصير الإنسانية والقيم التي عاشت عليها حتى الآن، ستنعش الفكر الفلسفي المعاصر وتعمق أبعاده وتفتح أمامه آفاقاً جديدة.

المناداة بأخلاقيات المهنة اليوم وجهت الإنسان المعاصر إلى التمسك بالدين والتوجه إلى بناء قاعدة أخلاقية جديدة في الأسرة، وفي المجتمع الذي يعيش فيه، هذا الاتجاه أضفى على المجتمع حلة أخلاقية ذات جمال وبهجة جعلت الحياة في ظل هذه الاتجاهات الأخلاقية حياة طبيعية تنشد الفضيلة. فاليوم المهن بأخلاقيات ، وصاحب المهنة منكب على مهنته من أجل أن يقوم أفضل ما يجب أن يقدمه محاولاً أن يكون مثالياً.

الاتجاه الجديد والمعاصر نحو أخلاقيات المهنة أظهر الاهتمام الكبير بالأبحاث العلمية التي تساهم في تطوير الإنسان الفرد، والمجتمع، والتوجه نحو الاكتشافات الجديدة التي تخدم الإنسان وتطور حياته، وتضفي عليه الصبغة الأخلاقية، فالعلماء

اليوم لا يولجون حل أي مشكلة في أي مجال من مجالات الحياة إلا وتكون القواعد الأخلاقية نصب عينيه لهذا السبب أصبحت جميع أو جلّ نتائج الأبحاث العلمية إيجابية تهدف إلى رفعة الحياة العصرية، وحلّت جلَّ المشاكل العلمية والبيئية بتقنيات تتسم بالمعرفة والأخلاق الحميدة.

أذيل هذه الورقة بأهم النتائج التي توصلنا إليها من دراسة موضوع " البناء الفلسفي والديني لأخلاقيات المهنة " وهي:

① دراسة الفضيلة من أهم الأسس التي تبنى عليها القواعد الأخلاقية للمهنة، والتمسك بها يؤدي إلى التقدم والرقي في استحداث مجتمع الفضيلة .

② يعد سقراط وفلسفته انطلاقة مهمة لدراسة الأخلاق وارتباطها بالدين، حيث سيطرت الكنيسة على الفكر الفلسفي والديني.

③ الفلسفة والدين أساساً متيناً لعلم الأخلاق بصفة عامة، ولأخلاقيات المهنة بصفة خاصة.

④ يجب الاهتمام بأخلاقيات المهنة وتخصيص فرعاً من العلوم لدراستها يعد تقدماً ملموساً للحداثة في مجتمعاتنا العصرية.

⑤ بفضل أخلاقيات المهنة توجه الإنسان المعاصر إلى التمسك بالدين، وبناء قاعدة متينة للأسرة بشكل جزئي، والمجتمع بشكل كلي مما أضفى عليه حلة أخلاقية جديدة.

⑥ الأخلاقيات العملية والبيئية نتيجة إيجابية لدراسة أخلاقيات المهنة من جانبها الفلسفي والديني.

- **التوصيات:**

يتقدم الباحث بوصيتين قابلة للتطبيق وتقديمها للجهات ذات الاختصاص هما:-

انطلاقاً من أهمية علم الأخلاق أوصي بأن تقوم الجامعات بتدريس هذا العلم لطلبة الجامعات في كل التخصصات.

اقتراح وثيقة تشتمل على حصر لأخلاقيات المهنة، وأهميتها لتقدم المجتمع وذلك من أجل خلق وعي أخلاقي بين أفراد المجتمع.

هوامش البحث:

* – ولد سقراط في أثينا ، وقبل أن يعرف الحكمة ويتعلمها كانت مهنته نحاتاً كمهنة أبيه ... هذه الإشارة توضح لنا أثر المهنة في حياة المفكر، وقد فهم الحكمة على أنها كمال العلم لكمال العمل، يوسف كرم،تاريخ الفلسفة اليونانية ،ص 189.

1 – يوسف كرم ، " تاريخ الفلسفة اليونانية، دار القلم، بيروت ، ص189 .

2 – المرجع السابق، ص53 .

3 – المرجع السابق ، ص60 .

4 – ألبرت اشفيتسر ، فلسفة الحضارة، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي، دار الأندلس، لبنان، ص98 .

5 – المرجع السابق، ص133.

6 – المرجع السابق، ص128.

7 – ألبرت اشفيتسر ، مرجع سابق، ص133.

8 – المرجع السابق، ص117.

9 – سورة النحل، الآية : 89.

10 – د. أبو بكر التلوع، فلسفة الأخلاق الحديثة والمعاصرة، منشورات جامعة الزاوية، ليبيا، ص82.

11 – توفيق الطويل، الفلسفة الخلقية ونشأتها، وتطورها ، دار النهضة العربية، مصر، ص34.

12 – المرجع السابق، ص62.

13 – المرجع السابق، ص421.

14 – المرجع السابق، ص450.

15 – سورة الحشر، الآية : 9.

16 – عمر بو فتاس، "أثر فلسفة الحق الكانطية"، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 2007 ، ص 232 .